فصل ـ و يلتحق بوظائف شهور السنة الهلالية ـ وظائف فصول السنة الشمسية و فيه ثلاث مجالس ـ المجلس الأول في ذكر فصل الربيع .

خرجا في الصحيحين [من حديث أبي سعيد الخدري Bه عن النبي صلى ا عليه و سلم قال : إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج ا لكم من بركات الأرض قيل : ما بركات الأرض ؟ قال : زهرة الدنيا فقال له رجل : هل يأتي الخير بالشر ؟ فصمت رسول ا صلى ا عليه و سلم حتى ظننت أنه سينزل عليه ثم جعل يمسح عن جبينه قال : أين السائل ؟ قال : أنا قال : لا يأتي الخير إلا بالخير إن هذا المال خضرة حلوة و إن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت و ثلطت و بالت ثم عادت فأكلت و إن هذا المال خضرة حلوة من أخذه بحقه و وضعه في حقه فنعم المعونة هو و إن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل و لا يشبع] كان النبي صلى ا عليه و سلم يتخوف على أمته من فتح الدنيا عليهم فيخاف عليهم الإفتتان بها .

ففي الصحيحين [عن عمرو بن عوف أن النبي صلى ا عليه و سلم قال للأنصار لما جاءه مال من البحرين : أبشروا و أملوا ما يسركم فوا ما الفقر أخشى عليكم و لكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم ما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم] و كان آخر خطبة خطبها على المنبر حذر فيها من زهرة الدنيا ففي الصحيحين [عن عقبة بن عامر أن النبي صلى ا عليه و سلم صعد المنبر فقال : إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي و لكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها فتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم] قال قال عقبة : فكان آخر ما رأيت من رسول ا صلى ا عليه و سلم على المنبر و في صحيح مسلم [عن عبد ا بن عمرو أن النبي صلى ا عليه و سلم قال : إذا افتتحت عليكم خزائن فارس و الروم أي قوم أنتم ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف : نقول كما أمرنا ا عز و جل فقال رسول ا صلى ا عليه و سلم : أو غير ذلك تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون] و في المسند [عن عمر عن النبي صلى ا عليه و سلم قال : لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى ا بينهم العداوة و البغضاء إلى يوم القيامة] قال عمرو : أنا أشفق من ذلك و فيه أيضا [عن أبي ذر : أن أعرابيا قال : يا رسول ا أكلتنا الضبع يعني السنة و الجدب فقال النبي صلى ا عليه و سلم : غير ذلك أخوف مني عليكم حين تصب عليكم الدنيا صبا فليت أمتي لا يلبسون الذهب] و في رواية الديباج و فيه أيضا [عن أبي هريرة عن النبي صلى ا عليه و سلم قال : ما أخشى عليكم الفقر و لكني أخشى عليكم التكاثر] .

و يروى [من حديث عوف بن مالك و أبي الدرداء عن النبي صلى ا عليه و سلم قال : الفقر تخافون و الذي نفسي بيده لتصبن عليكم الدنيا صبا حتى لا يزيغ قلب أحدكم إن أزاغه إلا هي] و في رواية عوف : [فإن ا فاتح عليكم فارس و الروم] و في المعنى أحاديث أخر و في الترمذي أنه صلى ا عليه و سلم قال : [لكل أمة فتنة و إن فتنة أمتي المال] .

فقوله صلى ا عليه و سلم في حديث أبي سعيد الخدري : [إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج ا لكم من بركات الأرض] ثم فسره بزهرة الدنيا و مراده : ما يفتح على أمته منها من ملك فارس و الروم و غيرهم من الكفار الذين ورثت هذه الأمة ديارهم و أموالهم و أراضيهم التي تخرج منها زروعهم و ثمارهم و أنهارهم و معادنهم و غير ذلك مما يخرج من بركات الأرض و هذا من أعظم المعجزات و هو إخباره بظهور أمته على كنوز فارس و الروم و أموالهم و ديارهم و وقع على ما أخبر به و لكنه لما سمى ذلك ببركات الأرض و أخبر أنه أخوف ما يخافه عليهم أشكل ذلك على بعض من سمعه حيث سماه بركة ثم خاف منه أشد الخوف فإن البركة إنما هي خير و رحمة و قد سمى ا تعالى المال خيرا في مواضع كثيرة من القرآن فقال تعالى : { و إنه لحب الخير لشديد } و قال : { إن ترك خيرا الوصية للوالدين و الأقربين } و قال تعالى عن سليمان عليه السلام : { إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي } فلما سأله السائل : هل يأتي الخير بالشر صمت النبي صلى ا عليه و سلم حتى ظنوا أنه أوحي إليه و الظاهر أن الأمر كان كذلك و يدل عليه أنه ورد في رواية لمسلم في هذا الحديث : [فأفاق يمسح عنه الرحضاء] ـ و هو العرق ـ و كان النبي صلى ا عليه و سلم إذا أوحي إليه يتحدر منه مثل الجمان من العرق من شدة الوحي و ثقله عليه و في هذا دليل على أنه صلى ا عليه و سلم كان إذا سئل عن شيء لم يكن أوحي إليه فيه شيء انتظر الوحي فيه و لم يتكلم فيه بشيء حتى يوحى إليه فيه فلما نزل عليه جواب ما سئل عنه قال : أين السائل ؟ قال : ها أنا فقال النبي صلى ا عليه و سلم : [إن الخير لا يأتي إلا بالخير] و في رواية لمسلم فقال : [أو خير هو ؟] و في ذلك دليل على : أن المال ليس بخير على الإطلاق بل منه خير و منه شر ثم ضرب مثل المال و مثل من يأخذه بحقه و يصرفه في حقه و من يأخذه من غير حقه و يصرفه في غير حقه فالمال في حق الأول خير و في حق الثاني شر فتبين بهذا أن المال ليس بخير مطلق بل هو خير مقيد فإن استعان به المؤمن على ما ينفعه في آخرته كان خيرا له و إلا كان شرا له فأما المال فقال : [إنه خضرة حلوة] .

و قد وصف المال و الدنيا بهذا الوصف في أحاديث كثيرة : ففي الصحيحين [عن حكيم بن حزام أنه سأل النبي صلى ا عليه و سلم فأعطاه ثم سأله فأعطاه ثم سأله فقال له النبي صلى ا عليه و سلم : يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه و من أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه و كان كالذي يأكل و لا يشبع] و في صحيح مسلم [

عن أبي سعيد الخدري Bه عن النبي صلى ا عليه و سلم قال : إن الدنيا خضرة حلوة و إن ا مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا و اتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء] و استخلافهم فيها هو ما أورثهم ا منها مما كان في أيدي الأمم من قبلهم كفارس و الروم و حذرهم من فتنة الدنيا و فتنة النساء خصوصا فإن النساء أول ما ذكره ا من شهوات الدنيا و متاعها في قوله تعالى : { زين للناس حب الشهوات من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسومة و الأنعام و الحرث ذلك متاع الحياة الدنيا } و في المسند و الترمذي [عن خولة بنت قيس عن النبي صلى ا عليه و سلم قال : إن هذا المال خضرة حلوة فمن أصابه بحقه بورك له فيه و رب متخوض فيما شاءت نفسه من مال ا و رسوله ليس له يوم القيامة إلا النار] و في المسند أيضا [عن خولة بنت ثامر الأنصارية عن النبي صلى ا عليه و سلم قال : إن الدنيا خضرة حلوة و إن رجالا سيخوضون في مال ا بغير حق لهم النار يوم القيامة] و خرج البخاري من قوله : [إن رجالا] إلى آخره و في المسند أيضا [عن عائشة عن النبي صلى ا عليه و سلم قال : إن هذه الدنيا خضرة حلوة فمن آتيناه منها شيئا بطيب نفس أو طيب طعمة و لا إسراف بورك له فيه و من آتيناه منها شيئا بغير طيب نفس منا و غير طعمة و إسراف منه لم يبارك له فيه] و في المعنى أحاديث أخر .

و قوله صلى ا عليه و سلم : [إن مما ينبت الربيع يقتل حبطا أو يلم إلا أكلة الخضر] مثل آخر ضربه صلى ا عليه و سلم لزهرة الدنيا و بهجة منظرها و طيب نعيمها و حلاوته في النفوس فمثله كمثل نبات الربيع و هو المرعى الخضر الذي ينبت في زمان الربيع فإنه يعجب الدواب التي ترعى فيه و تستطيبه و تكثر من الأكل منه أكثر من قدر حاجتها لاستحلائها له فأما أن يقتلها فتهلك و تموت حبطا و الحبط : انتفاخ البطن من كثرة الأكل أو يقارب قتلها و يلم به فتمرض منه مرضا مخوفا مقاربا للموت فهذا مثل من يأخذ من الدنيا بشره و جوع نفس من حيث لاحت له لا بقليل يقنع و لا بكثير يشبع و لا يحلل و لا يحرم بل الحلال عنده ما حل بيده و قدر عليه و الحرام عنده ما منع منه و عجز عنه فهذا هو المتخوض في مال ا و رسوله فيما شاءت نفسه و ليس له إلا النار يوم القيامة كما في حديث خولة المتقدم و المراد بمال ا و مال رسوله : الأموال التي يجب على ولاة الأمور حفظها و صرفها في طاعة ا و رسوله من أموال الفيء و الغنائم و يتبع ذلك مال الخراج و الجزية و كذا أموال الصدقات التي تصرف للفقراء و المساكين كمال الزكاة و الوقف و نحو ذلك و في هذا تنبيه على أن من تخوض من الدنيا في الأموال المحرم أكلها كمال الربا و مال الأيتام الذي من أكله أكل نارا و المغضوب و السرقة و الغش في البيوع و الخداع و المكر و جحد الأمانات و الدعاوى الباطلة و نحوها من الحيل المحرمة أولى أن يتخوض صاحبها في نار جهنم غدا فكل

هذه الأموال و ما أشبهها يتوسع بها أهلها في الدنيا و يتلذذون بها و يتوصلون بها إلى لذات الدنيا و شهواتها ثم ينقلب ذلك بعد موتهم فيصير جمرا من جمر جهنم في بطونهم فما تفي لذتها بتبعها كما قيل : .

(تفنى اللذاذة ممن نال لذاتها ... من الحرام و يبقى الإثم و العار) .

(تبقى عواقب سوء من مغبتها ... لا خير في لذة من بعدها النار) .

فلهذا شبه النبي صلى ا عليه و سلم من يأخذها بغير حقها و يضعها في غير حقها بالبهائم الراعية من خضراء الربيع حتى تنتفخ بطونها من أكله فإما أن يقتلها و إما أن يقارب قتلها فكذلك من أخذ الدنيا من غير حقها و وضعها في غير وجهها إما أن يقتله ذلك فيموت به قلبه و دينه و هو من مات على ذلك من غير توبة منه و إصلاح حال فيستحق النار بعمله قال ا تعالى : { و الذين كفروا يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و النار مثوى لهم } و هذا هو الميت حقيقة فإن الميت من مات قلبه كما قيل : .

(ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء) .

و أما أن يقارب موته ثم يعافى و هو من أفاق من هذه السكرة و تاب قبل موته .

و قد قال علي Bه في كلامه المشهور في أقسام جملة العلم : أو منهوم باللذات سلس القياد للشهوات أو مغرى بجمع الأموال و الإدخار و ليسوا من رعاة الدين أقرب شبابهم الأنعام السارحة و في الأبيات المشهورة التي كان عمر بن عبد العزيز ينشدها كثيرا : .

(نهارك يا مغرور سهو و غفلة ... و ليلك نوم و الردى لك لازم) .

(و تتعب فيما سوف تكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم) .

و إما استثناؤه صلى ا عليه و سلم من ذلك : [آكلة الخضر] فمراده بذلك مثل المقتصد الذي يأخذ من الدنيا بحقها مقدار حاجته فإذا نفذ و احتاج عاد إلى الأخذ منها قدر الحاجة بحقه و آكلة الخضر : دويبة تأكل من الخضر بقدر حاجتها إذا احتاجت إلى الأكل ثم تصرفه عنها فتستقبل عين الشمس فتصرف بذلك ما في بطنها و تخرج منه ما يؤذيها من الفضلات و قد قيل : إن الخضر ليس من نبات الربيع عند العرب إنما هو من كلاء الصيف بعد يبس العشب و هيجه و اصفراره و الماشية من الإبل لا تستكثر منه بل تأخذ منه قليلا قليلا و لا تحبط بطونها منه فهذا مثل المؤمن المقتصد من الدنيا يأخذ من حلالها و هو قليل بالنسبة إلى حرامها قدر بلغته و حاجته و يجتزي من متاعها بأدونه و أخشنه ثم لا يعود إلى الأخذ منها إلا إذا نفذ ما عنده و خرجت فضلاته فلا يوجب له هذا الأخذ ضررا و لا مرضا و لا هلاكا بل يكون ذلك بلاغا له و يتبلغ به مدة حياته و يعينه على التزود لآخرته و في هذا إشارة إلى مدح من أخذ من حلال الدنيا بقدر بلغته و قنع بذلك كما قال صلى ا عليه و سلم : [قد أفلح من هداه ا إلى الإسلام و كان عيشه كفافا فقنع به] و قال صلى ا عليه و سلم : [خير الرزق ما

يكفي] و قال : [اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا] .

(خذ من الرزق ما كفا ... و من العيش ما صفا) .

(كل هذا سينقضي ... كسراج إذا انطفا) .

ثم قال صلى ا عليه و سلم : [إن هذا المال خضرة حلوة] فأعاده مرة ثانية تحذيرا من الإغترار به فخضرته منظرة و حلاوته طيب طعمه فلذلك تشتهيه النفوس و تسارع إلى طلبه و لكن لو فكرت في عواقب لهربت منه الدنيا في الحال حلوة خضره و في المآل مرة كدرة نعمت المرضعة و بئست الفاطمة .

(إنما الدنيا نهار ... ضوءه ضوء معار) .

(بينما عيشك غض ... ناعم فيه اخضرار) .

(إذ رماه زمناه ... فإذا فيه اصفرار) .

(و كذلك الليل يأتي ... ثم يمحوه النهار) .

مثل حرام الدنيا كشجرة الدفلى تعجب من رآها و تقتل من آكلها .

(نرى الدنيا و زهرتها فنصبوا ... و ما يخلو من الشهوات قلب) .

(فضول العيش أكثره هموم ... و أكثر ما يضرك ما تحب) .

(إذا اتفق القليل و فيه سلم ... فلا ترد الكثير و فيه حرب) .

الذي بشر أمته بفتح الدنيا عليهم حذرهم من الإغترار بزهرتها و خوفهم من خضرتها و حلاوتها و أخبرهم بخبرابها و فنائها و أن بين أيديهم دارا لا تنقطع خضرتها و حلاوتها فمن وقف مع زهرة هذه العاجلة انقطع و هلك و من لم يقف معها و سار إلى تلك وصل و نجا في المسند [عن ابن عباس : أن النبي صلى ا عليه و سلم أتاه فيما يرى النائم ملكان فقعد أحدهما عند رأسه و الآخر عند رجليه فقال أحدهما للآخر : اضرب له مثلا فقال : إن مثله و مثل أمته كمثل قوم سفر انتهو إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة و لا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذا أتاهم رجل في حلة حبرة فقال : أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة و حياضا رواء أتتبعوني ؟ قالوا : نعم قال : فانطلق بهم فأوردهم رياضا معشبة و حياضا رواء فأكلوا و شربوا و سمنوا فقال لهم : ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضا معشبة و حياضا رواء أن تتبعوني ؟ قالوا : بلى قال : فإن بين أيديكم رياضا هي أعشب من هذه و حياضا هي أروى من هذه فاتبعوني قال : فقالت طائفة : صدق و ا لنتبعنه و قالت طائفة : قد رضينا بهذا نقيم عله] و قد خرجه ابن أبي الدنيا و غيره من الحسن مرسلا بسياق أبسط من هذا و فيه : [إنهم لما رتعوا و سمنوا و أعجبهم المنزل صاح بهم فقال : ارتحلوا فإن هذه الروضة ذاهبة و إن هذا الماء غائر ذاهب و إن أمامكم روضة أعشب من هذه و ماء أروى من هذا الماء فكره ذلك عامة الناس و قالوا : ما

نريد بهذه بدلا و هم أكثر الناس و قال آخرون : و ا إن آخر قوله كأوله ارتحلوا فأبوا فارتحل قوم فنجوا و لم يشعر الذين أقاموا حتى طرقهم العدو ليلا فأصبحوا بين أسير و قتيل] الدنيا : خضراء الدمن و معنى ذلك أن خضرتها نابتة على مزبلة منتنة يا دني الهمة قنعت بروضة على مزبلة و الملك يدعوك إلى فردوسه الأعلى : { أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل } أرضيتم بخرابات البلى في الفردوس الأعلى يا لها صفقة غبن أتقنع بخسائس الحشائش و الرياض معشبة بين يديك .

و قوله صلى ا عليه و سلم : [من أخذه بحقه و وضعه في حقه فنعم المعونة هو و من أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل و لا يشبع] تقسيم لمن يأخذ المال على قسمين : فأحدهما : يشبه حال آكلة الخضر و هو من أخذه بحقه و وضعه في حقه و ذكر أنه نعم المعونة هو فإنه نعم العون لمن هذه صفته على الآخرة كما في [حديث عمرو بن العاص عن النبي صلى ا عليه و سلم قال : نعم المال الصالح للرجل الصالح] و هو الذي يأخذ بحقه و يضعه في حقه فهذا يوصله ماله إلى ا عز و جل فمن أخذ من المال بحقه ما يقويه على طاعة ا و يستعين به عليها كان أخذه طاعة و نفقته طاعة و في الحديث الصحيح عن النبي صلى ا عليه و سلم قال : [إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه ا إلا أجرت عليها حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك] و في حديث آخر : [ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة و ما أطعمت أهلك فهو لك صدقة و ما أطعمت ولدك فهو لك صدقة و ما أطعمت خادمك فهو لك صدقة] فما أخذ من الدنيا بنية التقوى على طلب الآخرة فهو داخل في قسم إرادة الآخرة و السعي لها لا في إرادة الدنيا و السعي لها قال الحسن : ليس من حب الدنيا طلبك ما يصلحك فيها و من زهدك فيها ترك الحاجة يسدها عنك تركها و من أحب الدنيا و سرته ذهب خوف الآخرة من قلبه و قال سعيد بن جبير : متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة و ما لم يلهك فليس متاع الغرور و لكنه بلاغ إلى ما هو خير منه و قال بعض العارفين : كل ما أصبت من الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم و كل ما أصبت منها تريد به الآخرة فليس من الدنيا و قال أبو سليمان : الدنيا حجاب عن ا لأعدائه و مطية موصلة إليه لأوليائه فسبحان من جعل شيئا واحدا سببا للإتصال به و الإنقطاع عنه .

و القسم الثاني : يشبه حاله حال البهائم التي ترعى مما ينبت الربيع [فيقتلها حبطا أو يلم] و هو من يأخذ المال بغير حقه فيأخذه من الوجوه المحرمة فلا يقنع منه بقليل و لا بكثير و لا يشبع نفسه منه و لهذا قال : [و كان كالذي يأكل و لا يشبع] [و كان النبي صلى ا عليه و سلم يتعوذ من نفس لا تشبع] و حديث [زيد بن ثابت عن النبي صلى ا عليه و سلم قال : من كانت الدنيا همه فرق ا عليه أمره و جعل فقره بين عينيه و لم يأته من الدنيا إلا ما كتب له] فمن كان فقره بين عينيه لم يزل خائفا من الفقر لا يستغنى قلبه بشيء و لا يشبع من الدنيا فإن الغنى غنى القلب و الفقر فقر النفس و في حديث خرجه

الطبراني مرفوعا : [الغنى غنى القلب و الفقر في القلب و من كان الغنى في قلبه فلا يضره ما لقي من الدنيا و من كان الفقر في قلبه فلا يغنيه ما أكثر له منها و إنما يضر نفسه] و عن عيسى عليه السلام قال : [مثل طالب الدنيا كشارب البحر كلما زاد شربا منه زاد عطشا حتى يقتله] قال يحيى بن معاذ : من كان غناه في قلبه لم يزل غنيا و من كان غناه في كيسه لم يزل فقيرا و من قصد المخلوقين لحوائجه لم يزل محروما و يشهد لذلك كله الحديث الصحيح عن النبي صلى ا عليه و سلم : [لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا و لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب و يتوب ا على من تاب] لو فكر الطامع في عاقبة الدنيا لقنع و لو تذكر الجائع إلى فضول مآلها لشبع .

(هب أنك قد ملكت الأرض طرا ... ودان لك العباد فكان ماذا) .

(أليس إذا مصيرك جوف قبر ... و يحثي التراب هذا ثم هذا) .

و قد ضرب ا في كتابه مثل الدنيا و خضرتها و نضرتها و بهجتها و سرعة تقلبها و زوالها و جعل مثلها كمثل نبات الأرض النابت من مطر السماء في تقلب أحواله و مآله قال ا تعالى : { و اضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح و كان ا على كل شيء مقتدرا } و قال تعالى : { إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس و الأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها و ازينت و ظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون } و قال تعالى : { أنما الحياة الدنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و تكاثر في الأموال و الأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما و في الآخرة عذاب شديد و مغفرة من ا و رضوان و ما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور } و قال تعالى : { ألم تر أن ا أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب } فالدنيا و جميع ما فيها من الخضرة و البهجة و النضرة تتقلب أحواله و تتبدل ثم تصير حطاما يابسا و قد عدد ا سبحانه زينة الدنيا و متاعها المبهج في قوله تعالى : { زين للناس حب الشهوات من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسومة و الأنعام و الحرث ذلك متاع الحياة الدنيا و ا عنده حسن المآب } و هذا كله يصير ترابا ما خلا الذهب و الفضة و لا ينتفع بأعيانهما بل هما قيم الأشياء فلا ينتفع صاحبهما بإمساكهما و إنما ينتفع بإنفاقهما و لهذا قال الحسن : بئس الرفيق الدرهم و الدينار لا ينفعانك حتى يفارقانك و أجسام بني آدم بل و سائر الحيوانات كنبات الأرض تنقلب من حال إلى حال ثم تجف و تصير ترابا قال ا تعالى : { و ا أنبتكم من الأرض نباتا * ثم يعيدكم فيها و يخرجكم إخراجا } .

(و ما المرء إلا كالنبات و زهره ... يعود رفاتا بعد ما هو ساطع) .

فينتقل ابن آدم من الشباب إلى الهرم و من الصحة إلى السقم و من الوجود إلى العدم كما قيل : .

(و ما حالتنا إلا ثلاث ... شباب ثم شيب ثم موت) .

(و آخر ما يسمى المرء شيخا ... و يتلوه من الأسماء ميت) .

مدة الشباب قصيرة كمدة زهر الربيع و بهجته و نضارته فإذا يبس و ابيض فقد آن ارتحاله كما أن الزرع إذا ابيض فقد آن حصاده و أجمل زهور الربيع الورد و متى كثر فيه البياض فقد قرب زمان انتقاله قال وهيب بن الورد : إن ملكا ينادي في السماء كل يوم : أبناء الخمسين زرع دنا حصاده و في حديث مرفوع : [إن لكل شيء حصادا و حصاد أمتي ما بين الستين إلى السبعين] .

(قد يبلغ الزرع منتهاه ... لا بد للزرع من حصاد) .

و قد يدرك الزرع آفة قبل بلوغ حصاده فيهلك كما أشير إليه في قوله تعالى : { حتى إذا أخذت الأرض زخرفها و ازينت و ظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس } قال ميمون بن مهران لجلسائه : يا معشر الشيوخ ما ينتظر بالزرع إذا ابيض قالوا الحصاد فنظر إلى الشباب فقال : يا معشر الشباب إن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يستحصد و قال بعضهم : أكثر من يموت الشباب و آية ذلك أن الشيوخ في الناس قليل .

(أيا ابن آدم لا يغررك عافية ... عليك صافية فالعمر معدود) .

(ما أنت إلا كزرع عند خضرته ... بكل شيء من الآفات مقصود) .

(فإن سلمت من الآفات أجمعها ... فأنت عند كمال الأمر محصود) .

كل ما في الدنيا فهو مذكر بالآخرة و دليل عليه فنبات الأرض و اخضرارها في الربيع بعد محولها و يبسها في الشتاء و إيناع الأشجار و اخضرارها بعد كونها خشبا يابسا يدل على بعث الموتى من الأرض و قد ذكر ا تعالى ذلك في كتابه في مواضع كثيرة قال ا تعالى : { و ترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربت و أنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن ا هو الحق و أنه يحيي الموتى و أنه على كل شيء قدير * و أن الساعة آتية لا ريب فيها و أن ا يبعث من في القبور } و قال ا تعالى : { و نزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات و حب الحصيد * و النخل باسقات لها طلع نضيد * رزقا للعباد و أحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج } و قال ا تعالى : { و هو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون } قال أبو رزين للنبي صلى ا عليه و سلم : كيف يحي ا الموتى

و ما آية ذلك في خلقه ؟ قال : [هل مررت بواد أهلك محلا ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قال : نعم قال : كذلك يخرج ا الموتى و ذلك آيته في خلقه] خرجه الإمام أحمد و قصر مدة الزرع و الثمار و عود الأرض بعد ذلك إلى يبسها و الشجر إلى حالها الأول كعود ابن آدم بعد كونه حيا إلى التراب الذي خلق منه و فصول السنة تذكر بالآخرة : فشدة حر الصيف يذكر بحر جهنم و هو من سمومها و شدة برد الشتاء يذكر بزمهرير جهنم و هو من زمهريرها و الخريف يكمل فيه اجتناء ثمرات الأعمال في الآخرة و أما الربيع فهو أطيب فصول السنة و هو يذكر بنعيم الجنة و طيب عيشها و ينبغي أن يحث المؤمن على الإستعداد لطلب الجنة بالأعمال الصالحة كان بعض السلف يخرج في أيام الرياحين و الفواكه إلى السوق فيقف و ينظر و يعتبر و يسأل ا الجنة و مر سعيد بن جبير بشباب من أبناء الملوك جلوس في مجالسهم في زينتهم فسلموا عليه فلما بعد عنهم بكى و اشتد بكاؤه و قال : ذكرني هؤلاء بشباب أهل الجنة يا هذا تزوج صلة بن أشيم بمعاذة العدوية و كانا من كبار الصالحين فأدخله ابن أخيه الحمام ثم أدخله على زوجته في بيت مطيب منجد فقاما يصليان إلى الصباح فسأله ابن أخيه عن حاله فقال : أدخلتني بالأمس بيتا أذكرتني به النار يعني الحمام و أدخلتني الليلة بيتا أذكرتني به الجنة فلم يزل فكري في الجنة و النار إلى الصباح دعا عبد الواحد بن زيد إخوانه إلى طعام صنعه إليهم فقام على رؤوسهم عتبة الغلام يخدمهم و هو صائم و هم يأكلون فجعلت عيناه تهملان فسأله عبد الواحد عن سبب بكائه ؟ فقال : ذكرت مواد أهل الجنة إذا أكلوا و قام الولدان على رؤوسهم إنما خلقت الدنيا مرآة لننظر بها إلى الآخرة لا لننظر إليها و نوقف معها .

(كفى حزنا أن لا أعاين بقعة ... من الأرض إلا ازددت شوقا إليكم) .

(و إني متى ما طاب لي خفض عيشة ... تذكرت أياما مضت لي لديكم) .

تدقيق النظر و الفكر في حال النبات يستدل به المؤمن على عظمة خالقه وكمال قدرته و رحمته فتزداد القلوب هيمانا في محبته و إلى ذلك الإشارة بقوله : { و هو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا و من النخل من طلعها قنوان دانية و جنات من أعناب و الزيتون و الرمان مشتبها و غير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر و ينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون } زمان الربيع كله واعظ يذكر بعظمة موجده و كمال قدرته و يشوق إلى طيب مجاورته في دار كرامته كما قال ابن سمعون في وصف الربيع : أرضه حرير و أنفاسه عبير و أوقاته كلها وعظ و تذكير .

(يا قومنا فاح الربيع ... و لاح للأحباب يحدو) .

(الزهر مسك و الريا ... ض أريضة و الماء جعد) .

(و الظل منثور و في ... جيد الشقائق منه عقد) .

(هذا النسيم و عنبر ... و ضباب هذا اللؤلؤ) .

(و الغصن يرقص و الغديـ ... ر مصفق و الورق تشدو) .

(و الجو بعض منه يا ... قوت و بعض لا زرود) .

(و الكل يشهد أن صـ ... انعه قدير و هو فرد) .

و لبعضهم في وصف زمان الربيع : .

(الطل في سلك الغصون كلؤلؤ ... رطب يصافحه النسيم فيسقط) .

(و الطير يقرأ و الغدير صحيفة ... و الريح يكتب و الغمام ينقط) .

رؤي بعض الشعراء المتقدمين في المنام بعد موته فسئل عن حاله ؟ فقال : .

غفر لي بأبيات قلتها في النرجس : .

(تفكر في نبات الأرض و انظر ... إلى آثار ما صنع المليك) .

(عيون من لجين ناظرات ... بأحداق هي الذهب السبيك) .

(على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن ا ليس له شريك) .

سبحان من سبحت المخلوقات بحمده فملأ الأكوان تحميده و أفصحت الكائنات بالشهادة بوحدانيته فوضح توحيده يسبحه النبات جمعه و فريده و الشجر عتيقه و جديده و يمجده رهبان الطيور في صوامع الأشجار فيطرب السامع تمجيده كلما درس الهزار درس شكره فالبلبل بالحمد معيده و كلما أقام خطيب الحمام النوح على الدوح هيج المستهام نوحه و تغريده : { أولم يروا كيف يبدئ ا الخلق ثم يعيده } عجبا للمتقلب بين مشاهدة حكمه و تناول نعمه ثم لا يشكر نعمه و لا يبصر حكمه و أعجب من ذلك أن يعصي المنعم بنعمه هذا عود شجر الكرم يكون يابسا طول الشتاء ثم إذا جاء الربيع دب فيه الماء و اخضر ثم يخرج الحصرم فينتفع الناس به حامضا و يتناولون منه طبغا و اعتصارا ثم ينقلب حلوا فينتفع الناس به حلوا رطبا و يابسا و يستخرجون منه ما ينتفعون بحلاوته طول العام و ما يأتدمون بحمضه و هو نعم الإدام فهذه التنقلات توجب للعاقل الدهش و التعجب من صنع صانعه و قدرة خالقه فينبغي له أن يفرغ عقله للتفكر في هذه النعم و الشكر عليها و أما الجاهل فيأخذ العنب فيجعله خمرا فيغطي به العقل الذي ينبغي أن يستعمل في الفكر و الشكر حتى ينسى خالقه المنعم عليه بهذه النعم كلها فلا يستطيع بعد الشرب أن يذكره أو يشكره بل ينسى من خلقه ورزقه فلا يعرفه في شكره بالكلية و هذه نهاية كفر النعم .

(فواعجبا كيف يعصي الإلـ ... ه أم كيف يجحده الجاحد) .

(و في كل تحريكة ... و تسكينة أبدا شاهد) .

(و في كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد) .

و من وجوه الإعتبار في النظر إلى الأرض التي أحياها ا بعد موتها في فصل الربيع بما ساق

إليها من قطر السماء أنه يرجى من كرمه أن يحي القلوب الميتة بالذنوب و طول الغفلة بسماع الذكر النازل من السماء و إلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : { ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر ا و ما نزل من الحق } إلى قوله : { اعلموا أن ا يحيي الأرض بعد موتها } ففيه إشارة إلى أن من قدر على إحياء الأرض بعد موتها بوابل القطر فهو قادر على إحياء القلوب الميتة القاسية بالذكر عسى لمحة من لمحات عطفه و نفحة من نفحات لطفه و قد صلح من القلوب كل ما فسد .

(عسى فرج يأتي به ا إنه ... له كل يوم في خليقته أمر) .

(إذا اشتد عسر فأرج يسرا فإنه ... قضى ا إن العسر يتبعه يسر) .

عسى من أحيا الأرض الميتة بالقطر أن يحي القلوب الميتة بالذكر عسى نفحة من نفحات رحمته تهب فمن أصابته سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا .

(إذا ما تجدد فصل الربيع ... تجدد للقلب فضل الرجاء) .

(عسى الحال يصلح بعد الذنوب ... كما الأرض تهتز بعد الشتاء) .

(و من ذا الذي ليس يرجوك ربي ... و ربع عطائك رحب الفناء)